العظيمة لمسقط عن كل البلاد العربية الأخرى، هو الاحترام واللطف الذي يبديه سكانها -بكل مراتبهم- إلى الأوروبيين [غواية المجهول، ص٢٣٦]، وقبله وصفهم جون أوفينجتون (سنة ١٦٩٣م) بأنهم مهذبون جدا في تصرفهم، وفي غاية اللطف إلى كل الغرباء؛ فلا أذى ولا إهانة يمكن أن تصدر منهم لأي أحد [نفسه، ص٢٣٠]، وفي سنة ١٧١٥م -كما يقول الحجري آنف الذكر-: «توقف الرحالة الإنجليزي ألكسندر هاملتن أثناء رحلته بين البحر الأحمر والصين في مسقط، ووجد أهلها متميزين بتواضعهم ودماثتهم، وقد لاحظ في سلوكهم هذا التواضع؛ ذلك بأنه -على خلاف ما يعرفه في أوروبا- لا يمارسون تفرقة عنصرية بين ضيوف المائدة؛ يجلس السيد والعبد دون تمييز، ويأكلان في الصحن نفسه» [نفسه، ص٢٣١].

أذكر جيدا حين كلفت بمراجعة كتاب (زنجبار .. تاريخها وشعبها) لوليام هارولد إنغرامز – القنصل السامي البريطاني في عهد السيد خليفة بن حارب، والتعليق عليه؛ وجدت الباحث منصفا في موارد عديدة؛ حيث وصف أخلاق العمانيين وطباعهم، وتدينهم الشديد؛ إلى درجة أنه نقل في باب الحقوق أقدارا كبيرة جدا من كتاب نور الدين عبدالله بن حميد السالمي، الموسوم بـ (تلقين الصبيان)؛ تأكيدا منه لما كان يتمتع به العمانيون من دين وخلق وحسن معاملة. كما فنّد كثيرا من الشبه التي كانت تلصق بهم، وهو كتاب جدير فعلا بالاقتناء.

وقد دأبنا جاهدين وفريق العمل القائم على إعداد كتاب (الثقافة الإسلامية والتحديات المعاصرة) على إفراد فصل كامل حول: الثقافة الإسلامية والمجتمع العماني، وأشرنا إلى جانب من تلك الصفات والخصائص والسمات التي تطبع العمانيين على وجه الخصوص، وتميز ثقافتهم من بين سائر الثقافات، والتي من بينها -بطبيعة الحال-: الاستقلالية والاستقامة الدينية والتسامح والتكافل والتعاطف مع الآخرين. ونقلنا ما وصف به رئيس البعثة الهولندية روبرت بادبرج العمانيين، والذي زار عمان في عهد الدولة اليعربية مبعوثا من قبل ممثلية بلده سنة ١٦٧٢م؛ بأنهم ذوو أخلاق وصفات مصقولة؛ يقول: «يتصف عرب عمان بالتهذيب والود والكرم والنخوة في تعاملهم مع بعضهم البعض، ومع الغرباء -أيضًا-. وتصرفاتهم في غاية النزاهة إلى درجة مبالغ

وصفهم جون أوفينجتون (سنة ١٦٩٣م) بأنهم مهذبون جدا في تصرفهم، وفي غاية اللطف إلى كل الغرباء

العمانيون انفتحوا كذلك على الآخر -عبر التاريخ- من خلال المشاركة بالدعوة السلمية للدين الحنيف

فيها، ولا يؤخذ أي قرار مباشرة قبل عرضه على الجميع» [الثقافة العمانية، ص٢٩٣].

بالجملة فإن من أهم الأعمال التي وثقت تلك الشهادات وغيرها مؤخرا في الداخل العماني: (غواية المجهول .. عمان في الأدب الإنجليزي) للدكتور هلال الحجري، و: (عمان في كتابات الرحالة الأوروبيين في القرن ١٩م) لأمل بنت سيف الخنصوري، إلى جانب عدد آخر من البحوث والكتابات الجادة؛ بالإضافة إلى ما أشرت إليه. كما صدر في باريس باللغتين الفرنسية والإنجليزية عمل آخر مهم، عنوانه: (عمان: خمسة وعشرون قرنا في كتابات الرحالة)، للباحث الفرنسي كزافي بيغان بيلكوك. وقد أسهمت (موسوعة عمان.. الوثايق السرية) للشيخ محمد بن عبدالله الحارثي -هي الأخرى- في ترجمة جانب من التقارير البريطانية التي تعكس وجها ثريا من وجوه رؤية الآخر للعماني؛ في مناحي مختلفة. هذه الأعمال تعين الدارس على فهم طبيعة وخصائص هذه الشخصية، وتيسر -بالتالي- دراستها وفهم سيكيلوجية العماني، وأسلوبه في التعامل مع الأشياء، وعلاقته بالآخرين. وقد تعمدت قصدا تجاوز ما ورد في تراثنا العربي والإسلامي بهذا الشأن؛ ليقيني بأن صورة المشهد لا تكتمل إلا بتلك الشهادات، ولضرورة إفراد مساحة أخرى للحديث حول ذلك المحور.

٤. الانفتاح والتواصل والعيش المشترك:

العمانيون انفتحوا كذلك على الآخر -عبر التاريخ-، من خلال المشاركة بالدعوة السلمية للدين الحنيف، والانخراط في الفتوحات الإسلامية شرقا وغربا، وعبر التجارة، وعن طريق الرحلات البحرية، التي أسهمت في تعرفهم على ثقافات أمم وشعوب مختلفة، كما نقلوا إلى الآخر المختلف عنهم في دائرة الانتماء تجربتهم الفريدة من نوعها، وسلوكهم الأصيل، وقيمهم النبيلة، ولقد أثارت أخلاقهم الراقية، وحسن تعاملهم إعجاب المتعاملين معهم؛ في كلٍّ من الهند والصين، وغيرها من البلدان التي وصلوا إليها، وتسابق الأفارقة إلى الإقبال على الدين الإسلامي وتعلم اللغة العربية [الرحلات البحرية العمانية ودورها في تنمية العلاقات الإنسانية مجلة: «الثقافية»، العدد: ٢٦، ص١٢ وما بعدها)]، وكان لامتزاج العرق العماني بالعرق الأفريقي أثره البالغ في تعزيز العلاقات (العمانية – الأفريقية)، وزيادة اللحمة وروابط الأخوة الراسخة، التي بقيت شاهدا على تلك الصلة القوية والقديمة التي ربطت بين العرقين. كما لم يكتفِ العمانيون بالتطبيق الأخلاقي في الميدان العملي فحسب، بل كان لهم جهودهم الملموسة في صياغة فكر خلقي راقٍ؛ في الجانب النظري؛ كشف عن بعض وجوهه دراسة قيمة قدمها الباحث سلطان الشيباني، نشرت ضمن أعمال: (ندوة الأخلاق الإنسانية الرفيعة)، المنعقدة في رحاب جامع السلطان قابوس الأكبر، سنة ١٤٣٢ هـ/ ٢٠١١م. وتأكيدا لذلك كله فقد عرفت عمان في الداخل العيش السلمي المشترك، والتفاعل الإيجابي والانسجام المذهبي بين أبناء البلد الواحد. والدولة اليوم تشدد على هذا الأمر غاية التشديد، وتعد المساس به أو الإخلال بالوحدة الوطنية، واللحمة المذهبية خطا أحمر، لا يمكن تجاوزه؛ محذرة من العبث بهذا الملف الخطير والحسَّاس، ومؤكدة في الوقت نفسه أحقيَّة الانتماء إلى أي مذهب مشروع لأي مواطن في الداخل والخارج -غيرَ منازع في ذلك-، وحاثَّة ومحرِّضة الجميع على ضرورة التعاون والتفاعل البنَّاء؛ للتقريب بين وجهات النظر المختلفة؛ لما فيه الخير، والاستعلاء -بالتالي- على الهواجس، وتجاوز الاختلاف المذموم، والحذر من الدعوات المذهبية والمناطقية المغرضة والبغيضة؛ لتحقيق الصالح العام والخاص.

كفاكم نفاقا اجتماعيا

مدرين المكتومية

madreen@alroya.info

حين يعيش الفرد فينا تحت تأثير النفاق الاجتماعي

حين تكون مضطراً للقيام بما لا تريد فهذا يعني أنك تعيش وفق رغبات الآخرين وما يتطلبه منك المجتمع ومن هم حولك، حتى وإن كان ذلك عكس ما ترغب وتتمنى، خاصة وإننا نعيش في زمن يتعامل أغلب الأشخاص فيه عكس رغباتهم أي أقرب ما يمكن أن نطلق عليه «نفاق اجتماعي» وهو تلك الممارسات التي يمكن أن يقوم بها الشخص على مختلف المستويات الحياتية بحثاً عن رضا أحدهم، أو تقرباً منه، ولربما لأجل أن يكون حسن السيرة دائماً في كل مواقفه حتى وإن كان ذلك بعيداً عمّا يختلج في ذاته أو ما يمارسه من طقوس خارج إطار القبيلة والقرية والبلد ككل، وحينها لا يمكننا سوى أن نطلق عليه «مُراء».

حين يعيش الفرد فينا تحت تأثير النفاق الاجتماعي يبدأ بغش نفسه وزعزعة مبادئه وخياراته لأجل أن يكسب نفسه شيئًا من الثقة تجاه ما يقوم به حتى وإن كان ذلك سبباً من أسباب إصابته بأمراض نفسية وربما قد يقوده الحال لحالة انفصام في الشخصية، لذلك بدأت تظهر العديد من الظواهر التي قد لا يرحب بها المجتمع ولكن الكثير ممن يرفضونها هم أكثر الأشخاص التصاقاً وتشجيعاً لأصحابها بالاستمرار فيها، فحين نجد المدافع عن حجاب المرأة أو الرافض لعملها بين الرجال أو منع ابتعاثها للخارج هو نفسه الشخص الذي يعيش أكثر من علاقة عاطفية ولديه أكثر من قناع يضلل به الآخرين، هنا لا يمكن القول سوى أن حالة انفصام أخلاقي تعطيه الهدوء النفسي حين يفعل الشيء وضده.

وللأسف هذه الحالة لم تتوقف على العاديين من الناس بل طالت بعضا قليلا ممن يطلق عليهم رجال الدين فوجدنا منهم من يمارس طقوس التعبد والعبادة نهاراً لكنه ليلاً مشتت بين القمار والكحول، وقد نجد فتاة تمارس حياتها تحت الأضواء برغبات الآخرين فترتدي ما يحلو للآخرين وتعمل كل ما من شأنه أن يجعلها في العيون «ملتزمة» في حين تكون على العكس حين تسافر، فتعيش حريتها وأكثر، وتبحث عمن يلقي في أذنها كلاماً معسولاً، وهناك من ينادي بالحرية والمساواة لكنه يبصق في وجه عامل النظافة ليمارس عنصريته الخفية، وجميع هؤلاء لا ألقي اللوم عليهم؛ لأنني أدرك تماماً أن المجتمع ـ ليس بأكمله ولكن بعضه ـ ما ضغط على هؤلاء وجعلهم يمارسون حياة ليست حياتهم وليست خياراً بل هي اضطرارا أمام الآخرين.

كنت أتساءل في نفسي كثيراً لماذا هناك أناس يعيشون حياتهم كما يريدون رغم كل الانتقادات التي يجدونها وكل العيون التي ترقبهم؟ وبالصدفة اكتشفت أن هؤلاء هم أسعد المخلوقات على الأرض فهم على الأرجح لم يفضلوا خذلان ذواتهم قبل خذلان الآخرين، بل على العكس انتقوا من أذهانهم ما يريحهم ولا يؤذي الآخرين، وتركوا الآخر يعيش ويفكر ويحلل كما يريد، ففي النهاية الحياة تعاش مرة واحدة ولا يمكن التفريط فيها من أجل الآخرين، هؤلاء أدركوا مبكراً أن الحياة التي يتركونها بين يدي الناس هي مجرد بنيان من الرمل سيتلاشى عند أول موجة، وبالتالي سيكونون معرضين لخسارة أنفسهم أمام أنفسهم قبل كل شيء.

هذه الفئة التي اكتشفت مبكراً أن العالم المخيف والذي يعيش بعدد كبير من الأقنعة ليس مسؤولاً عن وجدهم على هذه الأرض، وليس مسؤولاً عن الخير أو الشر الذي يعيشونه، وليس مسؤولاً أيضاً عن التخطيط لمستقبلهم، لذلك هم سعداء دائماً، يعيشون وفق أفكار استشرافية لحياة مليئة بالنقاء بعيداً عن الآخرين، هؤلاء لديهم من الحب ما يغدقونه على قرية بأكملها لأنهم اكتشفوا وعاشوا مراحل الجمال والحب والعطاء بكل تفاصيلها، ولم يكن لديهم الوقت لتلويث حياتهم بما يسمى «نفاق اجتماعي» على حساب رغباتهم بل على العكس ابتسموا في وجه المتسائل والمتطاول والمتشائم والمرائي ليثبتوا له بأن خسارته فادحة وأنه يعيش الوهم الذي يجعله لا يشعر بنعيم الحياة وفرصة العيش بعيداً عن خيارات غيره، وكم منا نجح في إثبات نفسه رغم كل الخلاف والاختلاف ورغم كل ما قد يسببه الآخر له ورغم كل الضغوط التي قد تجعله شخصا مستنسخا يمضي وراء ما يردده الآخر ويعيش بنفس الأقنعة التي يعيشون بها والتي لا تروق عليهم بقدر ما تروق لغيرهم.

ففي كل فجر يعطيك القدر فرصة لتستشق نسماته ستشعر بنقائه لأنه لم يتلوث بعد بأنفاس المنافقين.